

المصادر الفقهية والتاريخية للأوقاف الإسلامية

محمد علي حسين الحريري

منارات مكة المكرمة - مكة المكرمة

إن الوقف كظاهرة فقهية واجتماعية خضعت كغيرها من الظواهر للتغيير والتطوير واستحدثت فيها من الأحكام ما يجعلها تجربة فقهية زاخرة جديرة بالبحث والاهتمام . ولو استعرضنا مراجع هذا الموضوع في القديم والحديث لوجدناها منظومة في أحد المحاور التالية :

أولاً : الكتب الفقهية التي عالجت أحكام الوقف إنشاءً وتوزيعاً ولعل هذا الجانب هو أغزر المحاور إنتاجاً وثراء عبر العصور وقد برز في القرن الحالي إلى جانب الكتب الفقهية الكتب القانونية التي شرحت قوانين الوقف وتنظيماته وتداخل في معظم مباحثها مع الفقه الإسلامي .

ثانياً : الكتب التاريخية التي رصدت تاريخ الأوقاف في كل بلد وحصرت مداخلها ومخارجها ووثائقها ويدخل في هذا المحور كتب تاريخ البلدان والخطط والتاريخ الاقتصادي ككتب الأموال والخراج وتاريخ القضاة ومهامهم، وهناك كتب خاصة انفردت في تأريخ الوقف وأهميته التاريخية .

ثالثاً : الكتب التي عالجت الآثار الاقتصادية والاجتماعية للوقف ودوره في التنمية الاقتصادية والاجتماعية في حياة الأمة الإسلامية بشكل عام أو في عصر معين من فترات التاريخ .

أولاً : كتب الفقه ونظمه القانونية :

قد يكون صعباً حصر هذه الكتب ولكني سأحاول سرد المتداول منها والموجود على مناضد الباحثين المعاصرين :

١ - **أحكام الأوقاف** لأبي بكر أحمد بن عمرو الخصاف : وهو فقيه حنفي مشهور وكان كتابه أصلاً للكتاب الثاني الذي لخصه الطرابلسي .

٢ - **الإسعاف في أحكام الأوقاف** للطرابلسي برهان الدين إبراهيم بن موسى بن أبي بكر الطرابلسي الحنفي (ت ٩٢٢هـ) وله طبعتان متداولتان إحداها عن دار الرائد العربي ببغروت والثانية عن مكتبة الطالب الجامعي وهما نسخة واحدة وتحتاج إلى تحقيق وفهرسة معاصرة ليتمكن الباحثون من الاستفادة من الكتاب .

٣ - **المنافاة بالأوقاف وما وقع في ذلك من النزاع والخلاف**

لمؤلفه شرف الدين جمال الإسلام أحمد بن الحسن بن عبدالله المعروف بابن قاضي الجبل من فقهاء الحنابلة في العصر المملوكي ، القرن السابع وهو أزهي عصور الوقف الإسلامي كثرة وتنوعاً وقد طبع هذا الكتاب في دار الأصفهاني بجدة عام ١٩٨٦هـ بتحقيق الشيخ عبدالله بن عمر بن دهيش .

٤ - **أحكام الوقف** لمؤلفه هلال بن يحيى بن مسلم الرأي البصري أشار إليه الطرابلسي في مقدمة الإسعاف ولعله أقدم كتب الوقف وقد طبع في حيدر أباد الدكن .

٥ - تيسير الوقوف في غوامض أحكام الوقوف لزين الدين عبدالرؤوف المناوي وما زال مخطوطاً في مكتبة الأزهر تحت رقم ٥٥٨١/٧٠٩ .

٦ - **الإنصاف في تمييز الأوقاف ، القول المشيد في وقف المؤيد**، وهما رسالتان صغيرتان للحافظ جلال الدين السيوطي مطبوعتان ضمن مجموع رسائله (الهاوي

١٦- محاضرات في الوقف لمحمد أبي زهرة كتبها لطلابه

في كلية الحقوق بجامعة القاهرة ، صدرت طبعته الثانية عن دار الفكر العربي في القاهرة عام ١٩٧١م.

١٧- أحكام الأوقاف لعلي الخفيف وهو مقرر جامعي أيضاً لطلاب الحقوق بالقاهرة .

١٨- أحكام الأوقاف لمصطفى الزرقا - طبع بدمشق عام ١٩٤٧م .

١٩- الوقف في نظامه الجديد لمحمد محمد مصطفى سرحان، صدر عام ١٩٤٧م .

وهناك تشابه كبير بين أحكام الوقف والوصية حتى أن الفقهاء وضعوا قاعدة فقهية أن كل واقعة في الوقف لا نص فيها يفتى بها بما يشبهها في الوصايا .

فمتولي الوقف يشبه تصرف الوصي على اليتيم والوقف كالوصية إلا أن الوقف ينفذ في حياة الواقف أما الوصية فبعد الموت وهي مقيدة بثالث المال وبإجازة الورثة أحياناً ومن هنا كتب بعض فقهاءنا المعاصرين من أساتذة القانون خاصة مباحث الوقف ملحقة بالوصايا ومن ذلك مثلاً :

٢٠- أحكام الوصايا والأوقاف لمحمد مصطفى شلبي ، طبعة الدار الجامعية للنشر - بيروت ١٩٨٢م .

٢١- أحكام الوصايا والأوقاف لأحمد فراج حسين وصدر عن الدار الجامعية للنشر بالإسكندرية عام ١٩٨٦م .

٢٢- أحكام الوصايا والأوقاف، لبدران أبو العينين بدران - مطبعة شباب الجامعة بالإسكندرية ، ١٩٨٠م .

٢٣- قانون الوقف الذري ومصادره لزهدي يكن ، كلية الحقوق في الجامعة اللبنانية ، صدر عن دار الثقافة ببيروت عام ١٩٦٤م .

٢٤- المختصر في الوقف لزهدي يكن وصدر أيضاً عن دار الثقافة ببيروت عام ١٩٦٦م .

في الفتاوى) في الجزء الأول ص ١٥٥ وص ١٦٦ .

٧- رسالة في بيع الأحباس للخطاب المالكي .

٨- عطية الرحمن في صحة أرصاد الجوامك والأطيان لعيسى الصفدي من العصر المملوكي .

٩- قانون العدل والإنصاف للقضاء على مشكلات الأوقاف لفقيه الحنفية في عصره ، محمد قدرى باشا ، الذي وضع الكتاب في فترة معاصرة لمجلة الأحكام العدلية لإيجاد حلول فقهية لقضية استبدال الأوقاف وبيعها بأفضل منها .

١٠- منهج اليقين في بيان أن الوقف الأهلي من الدين، رأي في الأوقاف الذرية . كتابان للشيخ محمد حسنين مخلوف كتبهما خلال الهجمة الشرسة على الأوقاف الذرية لتصفيتها والغائها .

١١- أحكام الأوقاف لحسن رضا ، طبع للمرة الثانية في بغداد عام ١٩٣٨م .

١٢- أحكام الأوقاف لمحمد شفيق العاني ، صدرت طبعته الثالثة عن مطبعة الإرشاد في بغداد عام ١٩٣٨م .

١٣- أحكام الوقف في الشريعة الإسلامية لمحمد عبيد عبدالله الكبيسي وهو رسالة دكتوراه تقدم بها المؤلف إلى كلية الشريعة بجامعة بغداد وطبعته بمطبعة الإرشاد بجامعة بغداد عام ١٩٧٧م بعناية وزارة الأوقاف العراقية . وهذا الكتاب هو أفضل وأشمل الدراسات الفقهية في موضوع الوقف .

١٤- الوقف من الناحية الفقهية والتطبيقية لمحمد سلام مذكور : الوقف لأحمد إبراهيم محاضرات كتبها لطلاب كلية الحقوق بجامعة القاهرة .

١٥- المنهل الصافي في الوقف وأحكامه والوثائق التاريخية للوقف الإسلامي المحيط بالمسجد الأقصى لمحمد أسعد الحسيني وطبع في دار أبي عرفة للصحافة بالقدس عام ١٤٠٢هـ .

ثانياً : تاريخ الأوقاف :

لعل أهم الدراسات التاريخية التي عالجت موضوع الوقف هو كتاب [أثر الأوقاف في الحياة الاجتماعية بمصر في العهد المملوكي] لمحمد محمد أمين صدر عن دار النهضة العربية بالقاهرة عام ١٩٨٠م وهو دراسة تاريخية موثقة واستقصاء لأثر الوقف في الحياة الاجتماعية خلال ثلاثة قرون ، حكم فيها المماليك مصر والشام في الفترة [٦٤٨ - ٩٢٣ هـ - ١٢٥٠ - ١٥١٧م] نال عليها المؤلف درجة الدكتوراه في التاريخ .

ولحياة ناصر الحجي كتاب عالج مسألة الوقف المملوكي . وقد ذكرت المصادر التاريخية أوقاف البلاد التي تتحدث عنها ففي خطط المقرئزي وحسن المحاضرة وخطط الشام والخطط التوفيقية تجد فصولاً مطولة عن الأوقاف في تلك البلاد .

ثالثاً - الآثار الاقتصادية والاجتماعية للوقف :

دعا معهد البحوث والدراسات التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة وهي واحدة من فروع جامعة الدول العربية - إلى ندوة عقدت في الرباط باسم [ندوة مؤسسة الأوقاف في العالم العربي والإسلامي] وقد حضر في الندوة عدد من الفقهاء والمؤرخين والباحثين في الوقف وآثاره الاجتماعية والاقتصادية وأصدرت الندوة كتاباً يضم تلك البحوث والمحاضرات .

كما أصدر المركز الإسلامي للتربية في بيروت كتابين حول موضوع الوقف هما :

١- المؤسسات الوقفية من منظار حديث قديم لمؤلفه توفيق حوري ، ١٩٨٠م .

٢ - الوقف في الإسلام لمؤلفه محمد شريف سكر ، صدر عام ١٩٧٧م . ولمصطفى السباعي ثلاثة فصول جميلة في كتابه من روائع حضارتنا تحدث فيها عن آثار الوقف حضارياً واقتصادياً واجتماعياً .

هذا عن الكتب أما الأبحاث الفقهية المنشورة فلا تقل أهمية عن الكتب ، فقد ضمت الدوريات المتخصصة عدداً من الأبحاث الوافية في مجال الوقف نذكر منها :

١ - نظام الوقف في الإسلام لعبدالعال علي سليمان في مجلة المحاماة الشرعية ، السنة الخامسة عام ١٩٣٣ - ١٩٣٤م ، ص ٢١٧ .

٢ - الوقف من الدين لسلطان الحسيني ، السنة الثالثة ، عام ١٩٣١ - ١٩٣٢م ، ص ٧٨٠ .

٣ - أبحاث في الوقف لمحمد كامل الغمراوي في مجلة القانون والاقتصاد في سنتها الثانية ، العدد الأول، يناير ١٩٣٠م ، ص ٢٣ .

٤ - الشيخ محمد أبو زهرة في بحثه عن الأوقاف في مجلة القانون والاقتصاد في سنتها العشرين ، العدد ١ ، ٢ ، مارس ١٩٥٠م .

٥ - الوقف الأهلي لعللي الخفيف في مجلة القانون والاقتصاد ، العددان ٣ ، ٤ ، في سنتها العاشرة - مارس - أبريل ١٩٤٠م ، ص ٣٥ .

٦ - كلمة في الوقف لأحمد إبراهيم في مجلة كلية الحقوق السنة الأولى العدد ٢ ، فبراير ١٩٢٧م ، وفي السنة الثانية العدد ٥ ، ٦ - ١٩٢٨م .

٧ - بحث في الوقف لبدر عبدالباسط متولي - مخطوط في مكتبة كلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر برقم ٢٧٥ .

٨ - أهمية الوقف وحكمة مشروعيته - عبدالله أحمد الزيد ، بحث في مجلة البحوث الإسلامية الصادرة عن دار الافتاء بالرياض - العدد ٣٦ ، ص ١٧٩ - ٢٢٥ .

٩ - الوقف ومكانته في الحياة الاقتصادية - مجلة الأصالة الجزائرية - ربيع الأول ١٤٠١ هـ .

١٠ - بحث المستشرقين (هيفنغ) و (شاخ) في دائرة المعارف الإسلامية .

وقليلة بحيث لا تتناسب مع وظيفة الوقف التي أداها في خدمة المجتمع ولا سيما في العصر المملوكي والعثماني وهما أكثر العصور الإسلامية أوقافاً على وجوه البر والتكافل الاجتماعي .

ففي القرن الثامن عشر الميلادي كانت أراضي الوقف تمثل ثلثي أراضي الدولة بعد انضمام أراضي الفيء إلى هذه المؤسسة العتيقة. فكان السلاطين يقطعون هذه الأرض لأعمال البر والخير والجهاد وإحياء الموات منها [إقطاع تملك] وكان المفروض على مستغلي هذه الأرض دفع عشر الغلال للدولة . ومع انتشار الفساد الإداري والمالي آلت هذه الأرض إلى التملك غير المشروع والبوار الاقتصادي . وقد حاول السلطان العثماني محمود الثاني [١٨٠٨ - ١٨٣٩م] بعد إلغائه الإنكشارية إصلاح الأوقاف ورفع سيطرة العسكر عنها وإلحاقها بوزارة الأوقاف فحرم طبقة العلماء والمدرسين من دخولهم الجارية التي تؤمن لهم استقلالية واسعة عن الإدارة وظل الأمر على هذه الحال حتى عام ١٩٢٥م حيث ألغى مصطفى كمال مؤسسة الوقف نهائياً من حياة المجتمع وقد أسهمت القوانين العثمانية وقوانين محمد علي في مصر في هذا التخريب الذي أقصى العلماء عن أهم عناصر سيطرتهم الاجتماعية فضعف العلماء وانكمشوا وصاروا عالة على الإدارة الحكومية برواتبهم الأمر الذي أدى إلى ضعف العلماء التقليديين وتقليص تأثيرهم . وقد درس المؤلف آثار انهيار الأوقاف على الحياة الاجتماعية والعلمية ^(١) .

٢ - الوقف في العالم الإسلامي في ق ١٩ - ٢٠ م :

كتاب يضم عدة أبحاث قدمت في ندوة يومي ١٣ - ١٤ تشرين الثاني ١٩٩٢م في إستانبول ونشرها المعهد الفرنسي لدراسات الأناضول في إستانبول عام ١٩٩٤م

ولكن أفضل الدراسات في هذه الناحية قد كتبها المستشرقون الذين عالجوا هذا الموضوع وتأثيره الحضاري .

وقد صدر عام ١٩٩١م عن الهيئة العامة للكتاب في مصر وضمن سلسلة تاريخ المصريين الكتاب التالي :

٣ - الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثماني لمحمد عفيفي .

ولعل أهم الكتب التي تناولت الآثار الاقتصادية والاجتماعية للأوقاف بشكل موسع هما الكتابان التاليان وسنعرض لهما بشيء من التفصيل :

١ - مقدمة لدراسة المؤسسات الوقفية في الدولة العثمانية للمستشرق بارنز :

من أهم الدراسات الاستشرافية التي درست تاريخ مؤسسة الوقف والعلاقات الاجتماعية في الدولة العثمانية ذلك البحث الذي كتبه المستشرق ج . ر . بارنز بعنوان [مقدمة لدراسة المؤسسات الوقفية في الدولة العثمانية] وطبع في [بريل - لايدن - ١٩٨٦م] حيث تناول هذا الباحث مؤسسة الوقف كمؤسسة إسلامية عريقة لعبت دوراً مهماً في الحياة الدينية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية في تاريخ الإسلام كله لأن الوقف كان القاعدة الصلبة التي تستند إليها مؤسسات الخدمة الاجتماعية في تلك العصور ويؤكد أن انهيار مؤسسة الوقف وغيابها هو السبب فيما آلت إليه أوضاع العالم الإسلامي الراهنة .

فمنذ انهيار مؤسسة الوقف في القرن التاسع عشر فقد المجتمع الإسلامي الكثير من مصادر صموده وثباته واستمراره وأتاح المجال للتدخل الأجنبي الساحق . ومع أهمية هذه المؤسسة فإن الدراسات التي تناولتها نادرة

١ - مجلة الفكر الإسلامي الصادرة عن دار الفتوى اللبنانية ، ٧ع ، ذو القعدة ١٤٠٨هـ / تموز ١٩٨٨م ، ص ٥٨ - ٥٩ .

هناك القدرة على التمرد وعدم الانصياع للوضع الجديد .
وفشلت محاولات إسرائيل إنشاء هيئة إسلامية لها -
قاضي قضاة - ومحكمة في يافا لحل مشكلات الوقف
ولكن المسلمين قاطعوا هذه الهيئات وراحوا يحلون
مشكلاتهم لدى الأردن وتحدث - ألكسندر بوبوفيتش عن
أوقاف دول البلقان ولا سيما ألبانيا التي كان فيها نوعان
من الوقف - [الوقف الإسلامي العام وأوقاف الطرق
الصوفية البكتاشية] كما تحدث عن الوقف في بلغاريا
واليونان والجبل الأسود والبوسنة والهرسك وبين مدى
الاعتداء الصارخ الذي قام به الشيوعيون والنصارى على
مؤسسات الأوقاف الإسلامية هناك .

أما (ستيفاني باراسيموز) فيتحدث عن الوقف المدني
في إستانبول التي تعتبر أكثر مدن العالم أوقافاً فسجلاتها
متلاحقة منذ القرن السادس عشر وفيها كم هائل لعقارات
وقفية وحيثما امتد شارع أو أقيمت عمارة حديثة
اصطدمت بأرض الوقف وذهبوا إلى المفتي ليصار إلى
الاستبدال أو التعويض أو البيع .

ويعالج (فاروق بليش) وهو المشرف على تنظيم الكتاب
الذي نحن بصددته مشكلة (وقف النقود) وما دار حولها من
خلاف فقهي - وقف العقار والمنقول - وأوضح دور
الاجتهاد الحنفي في قبول وقف النقود مما أدى إلى قيام
نظام بنكي أمواله من الأوقاف ونشوء تعاونيات وصناديق
تكافلية منذ أفتى الحنفية في أواسط القرن ١٦م بجواز
وقف النقود وكان الهدف من وقفها إتاحة الفرصة للفقراء
والمحتاجين لمواجهة الظروف الطارئة [الجفاف والفيضان
والمجاعات والحرائق] وإقراض المبالغ بفوائد أدنى مما
يسود في أوساط المرابين استناداً إلى بيع الوفاء أو بيع
الاستغلال الذي أجازته الحنفية . وقامت صناديق في
أوساط الإنكشارية لتغطية الحفلات والأعياد وشهر

وشارك في الندوة باحثون من دول إسلامية وغير إسلامية
تناولوا موضوع الوقف مؤسسة ونظاماً وواقعاً على الأرض
خلال قرنين وكتبت الأبحاث بالفرنسية والإنكليزية والتركية
وبمقدمة فرنسية طويلة استعرضت مضمون الكتاب
واطلعت على عرض له بالعربية في مجلة الاجتهاد اللبنانية
[عدد ٣٦ ، صيف ١٤١٨هـ، ص ٣٠٩] .

يتكون الكتاب من محاور أربعة :

الأول : يتناول الأوقاف في نهاية الدولة العثمانية
وتركيا المعاصرة .

الثاني : قضايا الوقف الإسلامي في فلسطين وأثره في
الصراع العربي الإسرائيلي وبعض مباحث الوقف
في أنحاء متفرقة من العالم العربي .

الثالث : يتحدث عن الوقف في دول البلقان وهي أجزاء من
الدولة العثمانية .

الرابع : وأبحاثه تتناول الأوقاف في جمهوريات الاتحاد
السوفيياتي المنهار .

إلى جانب بعض الأبحاث التي تناولت الآثار
الاقتصادية والاجتماعية والدينية والحرفية للوقف الإسلامي
ودوره في الحركة الصوفية مثلاً وفي نشأة بعض التجمعات
المهنية كوقف الأسطول والإنكشارية - ... إلخ . وأثر
الوقف في البلقان بعد انتهاء السيطرة العثمانية وفي
الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي .

وعن الوقف في فلسطين تحدث (أهارون لايش)
(إسحق إيتير) عن الأوقاف الإسلامية نقلاً عن سجل
القدس في القرن العشرين وأرشيف القضاء الإسلامي
والأرشيف الإداري للدولة العثمانية وهو المرجع في فض
النزاع بين النظار والمستفيدين .

ويؤكد (لايش) بقاء الوقف الإسلامي مؤسسة مزدهرة
بعد هزيمة ١٩٦٧م حيث ظل متماسكاً يمنح المسلمون

٦ - **الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها** لعبدالعزیز الشناوي . تناول أثر الوقف في الدولة العثمانية في الجزء الأول من الكتاب .

ويلاحظ في الآونة الأخيرة زيادة الاهتمام الوقف وتوجه الباحثين والمسؤولين لدراسته فقد عقدت وزارة الأوقاف الكويتية في الفترة (١٠ - ١٢) ذو القعدة ١٤١٣هـ / ١ - ٣ أيار ١٩٩٣م ندوة تحت عنوان (نحو دور تنموي للوقف) شارك فيها عدد كبير من العلماء والفقهائ والمفكرين وناقشت الندوة عدة موضوعات منها : دور الوقف في النمو الاقتصادي لصالح كامل ، والدور التنموي للوقف عبر تاريخ الحضارة الإسلامية لطف جابر فياض العلواني ومحمد عمارة ونزيه كمال حماد... وموضوعات متعددة أخرى طبعت في كتاب مستقل ونشرت أكثر الموضوعات في الدوريات الكويتية عبر السنوات السابقة (مجلة الوعي الإسلامي - العدد ٣٢٨ - حزيران ١٩٩٣م) وما يليها من الأعداد .

كما عقدت مجدداً ندوة عن الأوقاف وأحكامها الفقهية ودورها الحضاري والتنموي في جامعة الإمارات بالعين في الفترة (٦ - ٧ أيلول ١٩٩٧م) .

وكان آخر الكتب التي اطلعت عليها في مجال الوقف هو كتاب (الوقف والمجتمع نماذج وتطبيقات من التاريخ) ليحيى محمود بن جنيد "الساعاتي" صدر في سلسلة كتاب الرياض عام ١٩٩٧م .

وفي الختام فإن الوقف الإسلامي كان وما يزال دليلاً على رقي الأمة الإسلامية وسمو نزعتها الإنسانية عندما كان الأثرياء تدفعهم بوافع الخير والبر والرحمة لتسبيل جزء كبير من ثرواتهم على أبواب الخير والإحسان رافة بالإنسان ورافة أيضاً بالحيوان .

رمضان ... وقد صودرت أكثر أموال الإنكشارية والبتكاشية ودخلت في ميزانية الدولة بحل الإنكشارية . ولكن وقف النقود العينية استمر موجوداً حتى تبلورت فكرة إنشاء بنك الوقف التركي - wakif bank - عام ١٩١٣م أثناء وزارة خيرى أفندي للأوقاف العثمانية ولكن البنك لم يظهر للوجود إلا عام ١٩٥٤م وهو البنك الذي رعى الندوة الوقفية التي أصدرت هذا الكتاب وهناك دراسات أخرى عن الأوقاف في سوريا والجزائر ومصر . ويختتم الكتاب بالأثر الاجتماعي والاقتصادي للوقف ولا سيما بالنسبة للطرق الصوفية ذات القدرة المالية الكبيرة (السودان) والتي واجهت الظروف الاقتصادية الصعبة في بعض البلاد .

وهناك كتب أخرى لم تكتب لمناقشة الوقف بشكل أساسي بل تناولته عرضاً لصلته بموضوعات أخرى نذكر منها .

١ - **المجتمع الإنساني في ظل الإسلام ، وتنظيم الإسلام للمجتمع** للشيخ محمد أبي زهرة وقد طبع الثاني منهما في دار الفكر العربي بالقاهرة عام ١٩٩٥م .

٢ - **خطط الشام** لمحمد كرد علي وله طبعات متعددة وهو مشهور ومتداول .

٣ - **في رحاب دمشق** لمحمد أحمد دهمان - دار الفكر بدمشق .

٤ - **مرآة الشام** لعبدالعزیز العظمة ؛ تحقيق : نجدة فتحي صفوة - دار رياض نجيب الريس للنشر وتناول فيه قصة وقف الخط الحديدي الحجازي .

٥ - **خطط المقرئ والخطط التوفيقية** وسائر كتب الخطط في تاريخنا .